الفصل السادس

ضرورة التكامل المعرفي في التحصيل العلمي والتحصين الحضاري

مقاربة تأصيلية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها

عقيلة حسين[1]

مقدمة

من أهم آليات التحصين وبناء الذات الحضارية، المنظومة التعليمية، التي أولاها المسلمون عبر تاريخهم الطويل -حكاماً ومحكومين، علماء وعامة- كل العناية، من حيث التنظير وتصميم البرامج والمقاربات، والمقررات ومراعاة المستويات التعليمية والأولويات، والتدرج، وأنواع العلوم التي تلقن في مراحل عدة إلى الإجازات ونيل مرتبة العالم، والحافظ، والفقيه، والمحدث، والطبيب، والفيلسوف، وغيرها من الألقاب العلمية التي عرفها المسلمون. ولم يقصر الإسلام طلب العلم على الصغير أو الكبير ولا الرجل ولا المرأة، بل عمم الخطاب للجميع؛ لأن العلم مناط التكليف، وسبب الشرف والرفعة، ومقياس التحضر والتقدم، وسبب الفوز في الدنيا والآخرة.

(1) دكتوراه في أصول الفقه، أستاذة مشاركة بقسم الشريعة/ كلية العلوم الإسلامية-جامعة الجزائر. البريد الإلكتروني: akila03_h@yahoo.com.

obeikandl.com

وإذا كانت برامج التعليم الابتدائي والثانوي ومناهجه في العالم الإسلامي؛ تحقق بعض التكامل والتنوع في موادها بما في ذلك مواد الشريعة الإسلامية، فإن التعليم الجامعي خضع للبنية الفكرية الغربية في المناهج والأولويات والتخصصات، وغيّب أهم مصدر من مصادر المعرفة عند المسلمين وهو الوحي: القرآن والسنة. فهل التكامل المعرفي هو الوصل بين العلوم والتنسيق بينها من حيث المناهج والبرامج، أم الفصل بينها مراعاة للتخصصات؟ وهل التكامل المعرفي هو اعتماد الوحي، إضافة إلى العقل، والحدس، والتجربة؛ بوصفها مصادر المعرفة وآلياتها؟ وهل التكامل هو أخلقة المعرفة والعلوم والمناهج، وإخضاعها لقيم الأمة ومقاصد الشريعة؟

يتناول البحث معالجة إشكالية جوهرية في مسائل التكامل المعرفي بين العلوم، ودورها في التحصيل العلمي والتحصين الحضاري، بالنسبة إلى الطالب الجامعي، من أجل بناء مناهج وتصورات تنتج طالب علم يتحقق فيه التكامل بين القيم والعلم، والدين والمعرفة، والأخلاق والشهادة. وهذا هو الإطار التصوري الذي دلّت عليه نصوص الشريعة من القرآن والسنة، ومقاصدها، وأقوال العلماء. وإذا كان التكامل بين المعارف يعني الجمع بين العلوم المختلفة، فحري في هذا المقام الحديث عن إشكال خطير أوجده بعضهم في علوم الشريعة؛ وهو انعدام التكامل المعرفي بين أهل الفقه وأهل الحديث، وبين أهل الشريعة وأهل الحقيقة -التصوف-، وبين الشريعة والحكمة. فقد أحدث بعض المسلمين فصلاً بين الفقه، والحديث، والأصول، والعقيدة، والتصوف، والفقه، والشريعة والفلسفة ناهيك عن العلوم الأخرى؛ لأنهم تركوا الآليات التي تؤصِّل لذلك، وهي نصوص القرآن والسنة ومقاصد الشريعة، فوقع شرخ وفصل معرفي خطير في التاريخ الإسلامي، أدى إلى غلق باب الاجتهاد، والغلو في التعصب والتقليد، وتفويت فرصة النهوض واللحاق بركب الحضارة.

وقد يرى بعضهم أن مبدأ التكامل المعرفي يتنافى مع التخصص الدقيق للطالب والباحث، ومع علم الخلاف الذي ينتج تنوعاً وثراء معرفياً، لا خصومة

وعداوة وإرهاباً. إن التأصيل الشرعي لهذه القضايا والإشكالات في ضوء نصوص القرآن الكريم، والسنة الصحيحة، ومقاصد الشريعة، هو الموصل إلى تحديد العناصر الأساسية للنهوض الحضاري، وأهم هذه العناصر اقتران المعارف بالقيم، والعلم بحسن الخلق، والتدين بالتحضُّر، والعمل بالإخلاص.

أولاً: أسس التكامل المعرفي في الحضارة الإسلامية

يعيش الطالب الجامعي العربي عموماً، أزمة وشرخاً كبيراً بين هويته، تحصيله الجامعي، وتكوينه العلمي والتصوري والمنهجي. فهو يواجه في جميع تخصصاته نظريات مستوردة، وأفكاراً تهدد هويته الحضارية، وشخصيته الفطرية، مثل نظريات "فرويد" في علم النفس، ونظريات "ماركس" و"إنجلز" وغيرهما في الاقتصاد، والفلسفات الغربية والنظريات الوافدة في الفلسفة، الحتمية التاريخية في التاريخ، والأفكار والحلول والمناهج المستوردة من هنا وهناك.[2] وطالب دراسات اللغات الأجنبية ممزق بين هويته والحضارة التي يدرسها عبر الأدب الفرنسي أو الإنجليزي أو غيره، وطالب الطب والهندسة لا يتلقى مناهج السلف وعلومهم، فهو يعرف الغرب، ولا يعرف شيئاً عن تاريخ الطب في بلده أو حضارته. وطالب علوم الشريعة إمّا أنه يتلقى قناعات شخصية لا دروساً علمية، وإمّا معلومات تراكمية من غير استخدام لآليات التفكير ومنهجياته، وإمّا فقهاً من غير حديث، أو حديثاً من غير أصول، أو تصوفاً من غير ضوابط العقائد.

ومن هنا صار لزاماً إعادة الاعتبار لتكاملية المعرفية داخل المنظومة التعليمية والتعلمية، بوصفها السبيل الأقرب لتأسيس رؤية جديدة لواقع التعليم ومنتظراته بوصفه أكبر رهانات التنمية البشرية، وأكثرها حسماً في تحديد حاضر الأمم ومستقبلها.

---

(2) ولا أقصد هنا عدم التدريس والاطلاع وإعداد البحوث في هذه المجالات: الفلسفات والنظريات الغربية. بل القصد هو تشخيص الحالة التي عليها البرامج والمناهج والمقاربات النظرية في الجامعة الجزائرية، ومعظم جامعات الوطن العربي. لقد كان الغرب سباقاً لدراسة الشرق والاستفادة من علومه في نهضته الحديثة.

إنّ أساس بناء الحضارة الإسلامية، هو الدين والعلم. ومصادر الدين الإسلامي محددة بالكتاب والسنّة اللذين هما المصدران النقليان. والعلم آلته العقل، فالتكامل بين الدين بوصفه نصاً والعقل بوصفه مستنبطاً للعلم من النص، أدى إلى نشوء علوم شرعية كثيرة، أثرت في حركة الحضارة، وبناء الأمة الإسلامية التي وصفها القرآن العظيم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾. [آل عمران: 110]

1 – الحضارة الإسلامية دينٌ وعلم

قامت الحضارة الإسلامية على المزاوجة بين الدين والعلم. فقد حثّ الدين الإسلامي على العلم في أول الآيات نزولاً على سيد الخلق ﷺ. والعلم هو أساس التكليف والاجتهاد، وصحة الأعمال والأقوال والعلاقة بين العلم والدين لا تقوم على إلغاء أحدهما الآخر فقد جاء في كلام أهل العلم: "الْجَهْلُ سَبَبٌ عَظِيمٌ فِي الْعَالَمِ لِمَفَاسِدَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَفَوَاتِ الْمَصَالِحِ وَالْعِلْمُ سَبَبٌ عَظِيمٌ لِتَحْصِيلِ مَصَالِحَ وَدَرْءِ مَفَاسِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ."[3] وفي زمن الضعف قلّد بعض العرب والمسلمين الغرب؛ الذين جعلوا بين الدين والعلم شرخاً كبيراً، ولا حجة لهم في ذلك سوى أن الغرب تقدموا ونحن تأخرنا، فلْنحذُ حذوهم حتى نتقدم ؛ "... فقد ادعت فرقة أولى منهم أن بين العلم والدين تناقضًا صريحاً... وبالغت في التمسك بهذا التناقض، ولم تَرَ مخرجاً منه لا بترجيح ولا بتفريق، بل جعلت العلم حرباً على الدين وجعلت الدين حرباً على العلم، ورأت أنه لا مخرج من هذه الحرب إلا بانتصار العلم وانهزام الدين؛ فانتصر العلم لديها وانهزم الدين، وما درت هذه الطائفة منا أن أسباب النزاع بين العلم والدين عند غيرنا، لا وجود لها البتة عندنا مهما تكلفت من أسباب المشابهة بيننا وبينهم، ومهما لفَّقت من تُهم لتاريخنا حتى يكون بسوء تاريخ غيرنا، طامعة في أن يُقبل موقفها كما قُبِل موقف غيرها، وهيهات أن يُقبل! فالفجوة بيننا وبين

(3) القرافي، شهاب الدين أحمد بن إدريس. **أنوار البروق في أنواع الفروق**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م، ج2، ص124.

سوانا في هذا الأمر لا هي حفرة تُردم ولا هي هوة تُعبر."[4]

فالتوحيد في الرؤية الإسلامية ينبثق عنها مفهوم الاستخلاف، ولعل هذه الرؤية هي التي تربط بين التوحيد والوجود، وبين العقل والنقل، وبين الإنسان والكون في علاقة مركبة لا تناقض فيها ولا تعارض، بل تتكامل المفاهيم وتتضافر من أجل" تحرير" الإنسان من عبودية الطبيعة أو ألوهية الهوى والمنفعة المادية الضيقة، ويجعل أصل العلاقات بين البشر مبنياً على التعارف، والتدافع الخلاق.

2 – أهمية تأصيل الفكر والمعرفة على هدي من هوية الأمة الحضارية

انشغل العلماء المسلمون عبر تاريخهم الطويل، بربط العلم بالهويّة، والتحصيل العلمي بالأخلاق، والاختراع بالنفع للإنسان، وطلب العلم بالأجر العظيم. عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: "الإيمان عريان، ولباسه التقوى وزينته الحياء، وماله الفقه، وثمرته العلم."[5]

وقد أدى حصول أزمة بين المعرفة والدين إلى حصر العلم في المحسوس فقط؛ لأن الغرب فرّق بين مفهومي المعرفة والدين، في حين أن الإسلام في مبناه ومعناه وحضارته لا يقرّ بوجود هذا الشرخ، فمبدأ التكامل نمط مطّرد في مقاصد الدين والخلق، فهو مجسّد: بين عالم الغيب والشهادة، والجسد والروح، والنقل والعقل، والقول والفعل، والدنيا والآخرة، والتصور والتطبيق، والفرد والمجتمع، والمرأة والرجل. وانطلاقاً من هذه المبادئ تكون الخطط والاستراتيجيات التعليمية في الجامعة وغيرها من المؤسسات الساهرة على نشر المعرفة والوعي، ومراعاة أولويات التحصيل العلمي والإعداد التربوي للنشء. "ولا يخفى أن يقدم الأهم فالأهم فيه والوسيلة، مقدمة على المقصد، كما أن المباحث اللفظية مقدمة على

(4) عبد الرحمن، طه. **تجديد المنهج في تقويم التراث**، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط2، 2005م، ص72.

(5) الخطيب البغدادي. **الفقيه والمتفقه**، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار ابن الجوزي، ط1، 1996م، ج1، ص145.

المباحث المعنوية؛ لأن الألفاظ وسيلة إلى المعاني. ويقدم الأدب على المنطق، ثم هُما على أصول الفقه، ثم هو على الخلاف والتحقيق أن تقديم العلم على العلم لثلاثة أمور: إما لكونه أهم منه كتقديم فرض العين على فرض الكفاية، وهو على المندوب إليه وهو على المباح. وإما لكونه وسيلة إليه كما سبق فيقدم النحو على المنطق. وإما لكون موضوعه جزءاً من موضوع العلم الآخر، والجزء مقدم على الكل، فيقدم الصرف على النحو.

وربما يقدم علم على علم، لا لشيء منها، بل لفرض التمرين على إدراك المعقولات، كما أن طائفة من القدماء قدموا تعليم علم الحساب. وكثيراً ما يقدم الأهون فالأهون، ولذا قدم المصنفون في كتبهم النحو على الصرف، ولعلهم راعوا في ذلك أن الحاجة إلى النحو أمسّ. ثم إنه تختلف فروض الكفاية في التأكد وعدمه بحسب خلو الأعصار والأمصار من العلماء، فرُبَّ مِصْر لا يوجد فيه من يقسم الفريضة إلا واحد أو اثنان، ويوجد فيه عشرون فقيهاً فيكون تعلم الحساب فيه آكد من أصول الفقه. واعلم أن الواجب علمه هو فرض عين وهو كل ما أوجبه الشرع على الشخص في خاصة نفسه، وما أوجبه على المجموع ليعملوا به، ولو قام به واحد لسقط عن الباقين، ويسمى فرض كفاية. والعلوم التي هي فروض كفاية على المشهور: كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمر الدنيا وقانون الشرع؛ كفهم الكتاب والسنة وحفظهما من التحريفات، ومعرفة الاعتقاد بإقامة البرهان عليه وإزالة الشبهة، ومعرفة الأوقات والفرائض والأحكام الفرعية وحفظ الأبدان والأخلاق والسياسة، وكل ما يتوصل به إلى شيء من هذه علم اللغة والتصريف والنحو والمعاني والبيان، وكالمنطق وتسيير الكواكب ومعرفة الأنساب والحساب إلى غير ذلك من العلوم التي هي وسائل إلى هذه المقاصد. وتفاوت درجاتها في التأكيد بحسب الحاجة إليها في هذا الباب."[6]

فمبدأ التأصيل للعلم والمعرفة في الحضارة الإسلامية هو العودة إلى الوحي: القرآن والسنة، ووجود العلماء الذين يقودون الأمة، ويقومون بأدوار كثيرة لا

(6) القنوجي، صديق بن حسن. **أبجد العلوم والوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، تحقيق: عبد الجبار زكار، بيروت: دار الكتب العلمية 1978م، ج1، ص108.

تقتصر على نشر المعرفة فقط، ولا يمكن أن تتحول المعرفة إلى مراجع ومصادر وأوراق مخطوطة فقط، قال الإمام الجويني: "... فإني تخيلت انحلال الشريعة وانقراض حملتها، ورغبة الناس عن طلبها، وإضراب الخلق عن الاهتمام بها، وعاينُ الأئمة ينقرضون ولا يخلفون، والمتسمون بالطلب يرضون بالاستطراف، ويقنعون بالأطراف، وغاية مطلبهم مسائل خلافية يتباهون بها، أو فصول ملفقة، وكَلِم مرتقة في المواعظ، يستعطفون بها قلوب العوام، فعلمتُ أن الأمر لو تمادى على هذا الوجه لانقرض علماء الشريعة على قرب وكتب ولا تخلفهم إلا التصانيف والكتب، ثم لا يستقل بكتب الشريعة على كثرتها واختلافها، مستقل بالمطالعة..."[7]

3 – منظومة القيم وفلسفة التكامل المعرفي بين الشرق والغرب

إن إشكالية العلاقات بين المناهج في سياقي الفصل والوصل على المستوى المعرفي عامة، والتربوي خاصة، وعلاقتها بالقيم الحضارية لمنظري السياسات التربوية ومعدي المناهج، ضاربةٌ في أعماق تاريخ العلوم عند المسلمين وعند غيرهم شرقاً وغرباً. وقد تطرق إليها معظم العلماء، سواء أكان ذلك في سياق الحديث عن المناهج التعليمية والتربوية أم مناهج التصنيف والتأليف، أم مناهج النقد والتحليل والشرح وغيرها؛ وقد وجد خلاف جوهري في هذا المجال، سببه منظومة القيم المحددة لأولويات التحصيل العلمي والبناء الفكري عند المسلمين وعند غيرهم، فترتيب العلوم من حيث الأهمية والأولوية يخضع حتماً لهذه المنظومة القيمية؛ التي تتعلق –عند المسلمين– بتنمية الجانب الروحي والأخلاقي، ثم الإعداد العلمي في شتى أصناف المعرفة الإنسانية، بخلاف الغرب، الذي تقوم حضارته على العلوم الطبيعية والتجريبية والتخلي عن العلوم الدينية؛ لأن الكنيسة عرقلت تطور العلوم عندهم.

(7) الجويني، أبو المعالي. **غياث الأمم في النيات الظلم**، تحقيق: مصطفى حلمي وفؤاد عبد المنعم، الإسكندرية: دار الدعوة، 1400هـ، ص30.

ويحدد بعض المفكرين المعاصرين مفهوماً للتكامل المعرفي بكونه: تلك المعرفة والصورة المعرفية المتحققة بتفعيل الرؤية الإسلامية للوجود في كلّ مجالات المعرفة، سواء أكانت علوماً طبيعية أم اجتماعية أم إنسانية أم شرعية. وهذا المبدأ غيّبته الحضارة الغربية لأسباب معروفة، وحاولت جاهدة أن تغيبه عن المسلمين عبر إلغاء عشرة قرون من العلوم والحضارة الإسلامية؛ إذ لا تُدرّس هذه الفترة في مقررات معظم الجامعات الغربية. إن الغرب عندما يؤرخ لتاريخ العلوم عنده، يؤرخ للعصر اليوناني وعصر النهضة، ويقفز على عشرة قرون من العلم والحضارة والمعرفة. فهل يصح أن تكون 200 سنة من تاريخ العلوم في أوروبا، هي الوصية والمرجعية، والمحدد للمناهج والأنساق المعرفية وترتيب العلوم ماضياً وحاضراً ومستقبلاً؟!

يقتضي التعاطي العلمي مع إشكالية الوصل والفصل بين مختلف المناهج المؤثثة لفضاء المعرفة العلمية محاولة تأصيل هذه العلاقة؛ بالرجوع إلى مختلف السياقات التاريخية والإبستمولوجية التي ساهمت في صياغة هذه القضايا، وهو ما يمكن إنجازه بالاستئناس بمقاربات علمية رصينة، بتتبع المناهج العلمية بين سياقي الاتصال والانفصال، منذ أزمان معرفية غابرة، ووصولاً إلى مختلف التناولات الحديثة التي تطلبت ضرورة إيجاد خيط ناظم بين كلّ المعارف العلمية الإنسانية، وبخاصة على المستوى التعليمي والتربوي، الذي أضحت إعادة هيكلته في سياق تكامل المعرفة الإنسانية وتداخلها أمراً لا مناص منه، ولعل أهمها مقاربة "أندريه بورغينيون" المعبِّر عنها في سياق دراسته الموسومة بـ"من التعددية المناهجية إلى عبر المناهجية". وما يسمى بالفرنسية: "De la Pluridisciplinarité à la Transdisciplinarité"[8] إضافة إلى مقالة "إدغار موران" حول "البينمناهجية".

(8) انظر تفصيل ذلك في:

- رضوان، محمد فاضل. نحو تكاملية المعرفة: قراءة نظرية وتطبيقية في المقاربة البينمناهجية، رحلة المناهج بين سياقي الوصل والفصل، موقع الملتقى الفكري:www.almultaka.net

بالنسبة إلى "أندريه بورغينيون" فإن إشكالية الفصل بين مختلف المناهج والتخصصات، تضرب بجذورها في القدم، لتجد لها مستقراً في النسق الفلسفي الأرسطي الذي قسمها إلى ثلاث فئات: العلوم العملية، والعلوم الشِعْرية، والعلوم النظرية (الرياضيات، الطبيعيات، الإلهيات). أما في العصر الوسيط، فقد ظهر التمييز بينها في شكل جديد تمثل في الجمع بين الفروع المختلفة للمعرفة الحرة، ممثلة في إطار الرباعي العلمي (Quadrivium)، الذي كان يشتمل على الهندسة والحساب والفلك والموسيقى من جهة، والثلاثي الأدبي(Trivium) ، الذي كان يضم النحو والبلاغة والديالكتيك أو المنطق من جهة أخرى. وهذا التقسيم استمر حتى مستهل القرن السابع عشر، تاريخ ولادة العلم الحديث، حين نادى "ديكارت" بطريقة لـ"البحث عن الحقيقة في العلوم"، حتى قبل أن يتم إتقان تقنيات الاستقصاء. هذه الطريقة هي التي مهدت في تصور"بورغينيون" الدرب إلى استقلالية المناهج العلمية. ومع ذلك فإن التصنيف الحقيقي للمناهج، لم يتأسس بشكل واضح وصارم إلا مع حلول القرن التاسع عشر؛ الذي حمل معه تحولات علمية واجتماعية واقتصادية هائلة، ألقت بظلالها على العالم أجمع، والقارة الأوروبية بشكل خاص، فكان من نتائجها ظهور أنماط جديدة من التفكير والاشتغال الإنسانيين، بلغت قمتها في الفلسفة الوضعية التي وضع أسسها الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي" أوغست كونت"، الذي كانت له الكلمة الفصل في إعادة مفصلة المناهج على نحو خطي، بدءاً من الرياضيات حتى علم الاجتماع الفتي آنذاك، مروراً بالفلك والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والفسيولوجيا وعلم النفس. وفي هذا التصنيف الذي اقترحه" كونت" كانت درجة عمومية كل منهج تتناقص، بينما تتزايد درجة تعقيده، نزولاً من الرياضيات إلى علم الاجتماع. وقد كان ينبغي انتظار مجيء "أنطوان أوغستان كورنو" لإغناء تصورات "أوغست كونت" عبر إضفاء المنظور التاريخي؛ إذ رأى أن أهميته تتعاظم انطلاقاً من الرياضيات ووصولاً إلى العلوم الإنسانية.[9]

(9) المرجع السابق.

أما في العصر الحديث فظهرت اجتهادات عالم النفس الفرنسي "ج.بياجيه"، الذي واجه هذا التسلسل الخطي الذي اقترحه كونت وأغناه "كورنو" بتصور دائري يجعل العلوم الإنسانية، وبخاصة علم النفس وعلم الاجتماع، قابلة للتمفصل مع العلوم المنطقية الرياضية، إضافة إلى التمييز بين مجالات عدة في كل منهج: مجال مادي (موضوع المنهج)، ومجال تصوري (مجموع معارفه ونظرياته)، ومجال إبستمولوجي داخلي (دور الذات، نقد النظريات، إلخ)، ومجال إبستمولوجي مشتق يستخلص المدى الإبستمولوجي العام لنتائج المنهج. وبهذا تصبح كل معرفة متوقفة -بالضرورة- على الذات من جهة، كما على الموضوع من جهة أخرى.

وفي الاتجاه نفسه يرى "إدغار موران" في إطار حديثه عن التنظيم المناهجي الذي صاغه عند تعريفه لمفهوم منهاج (Discipline) أن للمناهج تاريخها المتعدد اللحظات ما بين الولادة والمأسسة والتطور، وصولاً إلى التدهور، وهذا التاريخ يرتبط -في رأيه- بتأسيس الجامعات الحديثة في القرن التاسع عشر وتطورها، مع انطلاق البحث العلمي في القرن العشرين، إنه تاريخ مسجل في إطار تاريخ الجامعة المسجل بدوره ضمن تاريخ المجتمع في شموليته، الشيء الذي يضعنا في اتصال مباشر مع كل من سوسيولوجيا العلوم والمعرفة. وقد اكتسى هذا التاريخ الذي يتحدث عنه (إدغار موران) معالم جديدة مع موجة الانفجار المعرفي الكبير الذي أفضى إلى ميلاد تخصصات علمية جديدة باستمرار.

وإذا كان الغرب يرتب العلوم والمناهج التربوية وفق فلسفته وتصوره، فإن المسلمين كان لهم تأصيلهم الخاص. وأولويات العلوم عندهم ليست من أجل قيام الحضارة المادية، بل قيام الإنسان الصالح الذي يقيم الدين والأخلاق وطاعة الله، ثم يقيم الحضارة المادية. كان عبد الله بن المبارك يقول: "لا يبتلى الرجل بنوع من العلوم ما لم يزين علمه بالأدب."[10]

(10) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. **شعب الإيمان**، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، بيروت: دار الكتب العلمية، 1410هـ،ج4، ص200.

وبناء على هذا رتبت العلوم في الحضارة الإسلامية -من حيث التحصيل- ترتيباً خاصاً يراعي الأولويات والمرجعيات والأهداف والمقاصد. قال ابن عبد البر:"...والعلوم تقسم قسمين: ضروري ومكتسب، فحد الضروري ما لا يمكن العالم أن يشكك فيه نفسه ولا يدخل فيه على نفسه شبهة، ويقع له العلم بذلك قبل الفكرة والنظر، ويدرك ذلك من جهة الحس والعقل...، وأما العلم المكتسب فهو ما كان طريقه الاستدلال والنظر ومنه الخفي والجلي...والعلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة: علم أعلى، وعلم أسفل، وعلم أوسط. فالعلم الأسفل هو: تدريب الجوارح في الأعمال والطاعات، كالفروسية والسياحة والخياطة وما أشبه ذلك من الأعمال التي هي أكثر من أن يجمعها كتاب أو أن يأتي عليها وصف.

والعلم الأعلى عندهم، علم الدين الذي لا يجوز لأحد الكلام بغير ما أنزل الله في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه-صلوات الله عليهم أجمعين- نصاً ومعنى. والواجب على من لا يعرف اللسان الذي نزل به القرآن وهي لغة النبي ﷺ أن يأخذ من علم ذلك ما يكتفي به ولا يستغني عنه حتى يعرف تصاريف القول، وفحواه، وظاهره، ومعناه. وذلك قريب على من أحب علمه وتعلمه وهو عون له على علم الدين الذي هو أرفع العلوم وأعلاها، به يطاع الله ويعبد ويشكر ويحمد، فمن علم من القرآن ما به الحاجة إليه، وعرف من السُّنة ما يعول عليه، ووقف من مذاهب الفقهاء على ما نزعوا به وانتزعوه من كتاب ربّهم وسنّة نبيّهم حصل على علم الديانة.

والعلم الأوسط هو معرفة علوم الدنيا التي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظيره، ويستدل عليه بجنسه ونوعه كعلم الطب والهندسة. وهذا التقسيم في العلوم كذلك هو عند أهل الفلسفة، إلا أن العلم الأعلى عندهم هو علم القياس... ثم العلم الأوسط والأسفل عندهم على ما ذكرنا عن أهل الأديان، إلا أن العلم الأوسط ينقسم عندهم إلى أربعة أقسام عَدّوها رؤوس العلوم، وهي: علم

الحساب، والتنجيم، والطب، وعلم الموسيقى ومعناه تأليف اللحون، وتعديل الأصوات، ورنّ الأنقار وأحكام صنوف الملاهي. أما علم الموسيقى واللهو فمطرح ومنبوذ عند جميع أهل الأديان على شرائط العلم والإيمان، وأما علم الحساب فالصحيح عندهم منه معرفة العدد والضرب والقسمة والتسمية وإخراج الجذور ومعرفة جُمّل الأعداد ومعنى الخط والدائرة والنقطة وإخراج الأشكال بعضها من بعض، وهو علم لا يستغنى عنه لفرائض المواريث والوصايا... ولا صحيح على الحقيقة إلا ما جاء في أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم."[11] وعليه لم يختلف العلماء المسلمون[12] عند ترتيبهم للعلوم من حيث الأهمية والبدء في التحصيل، فكلهم يرى أن التعليم الأولي للنشء هو حفظ القرآن الكريم، وبعده تأتي العلوم الأخرى.

4 – علماء السلف والتكامل المعرفي

حقق علماء الإسلام –رحمهم الله– عبر تاريخهم الطويل نموذجاً رائعاً للحرص على المعرفة والعلم. وانطلاقاً من وعيهم بأهمية العلم في بناء الحضارة وعدم انفكاك ذلك عن الهوّية، فقد حرصوا على تحقيق الأهداف، وتحصيل جميع العلوم التي تحتاج إليها الأمة أفراداً وجماعات، وتجسد ذلك في التكامل المعرفي في: التحصيل، والتأليف، والتقويم، والمنهج، والتكامل المعرفي على مستوى الأفراد والجماعات.

والأمثلة كثيرة لنماذج من علماء حققوا هذه العناصر التكاملية في مجموعها، لا سيّما من حيث التحصيل والتأليف والمنهج. أمّا التكامل المعرفي على المستوى الجماعي، فقد حققه مجموع العلماء الذين أيقنوا بأن التخصص

(11) ابن عبد البر، أحمد بن عمر. **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، الدمام: دار ابن الجوزي، ط1، 1994، ج2، ص446.

(12) انظر ابن خلدون في المقدمة، وابن عبد البر في "جامع العلم وفضله"، والغزالي في "إحياء علوم الدين"، وغيرهم.

ضروري في علم من العلوم، مع التحصيل التكاملي القاعدي المستمد من التركيز على علوم القرآن والسنّة، وبعدها يأتي التخصص المرغوب فيه من طالب العلم. وعلى مدار صيرورة الحضارة الإسلامية، كان المجتمع مكتفياً بحاجاتها الضرورية في مختلف التخصصات العلمية، وتوفر بذلك علماء في جميع الميادين: الشريعة، واللغة، والطب، والفلك، والرياضيات، وغيرها.

وفي ضرورة التكامل المعرفي في التحصيل يقول أبو حامد الغزالي: "على المتعلم ألا يدع فناً من فنون العلم، ونوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطّلع به على غايته ومقصده وطريقه، ثم إنْ ساعده العمر وواتته الأسباب طلب التبحر فيه، فإن العلوم كلّها متعاونة مترابطة بعضها ببعض ويستفيد منه في الحال، حتى لا يكون معادياً لذلك العلم بسبب الجهل به..."[13] وقد أورد السيوطي أن من أراد أن يتبحر في علم التفسير وحده لا بدّ له من خمسة عشر علماً: "هي: اللغة، والنحو، والصرف، والاشتقاق، وعلوم البلاغة الثلاثة؛ المعاني والبيان والبديع؛ وعلم القراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه، وعلم أسباب النزول، والقصص، وعلم الناسخ والمنسوخ، والفقه، والحديث، وعلم الموهبة."[14]

5 – الموسوعية والتخصص عند علماء الإسلام

تفطّن علماء الإسلام إلى إشكالية معرفية مهمة، تتلخص في عجز الإنسان عن إدراك كلّ العلوم والمعارف والإلمام بها؛ تحصيلاً واستيعاباً، وإن ثبّتوا وجوب الإلمام بأصول المعرفة: الوحيين؛ الكتاب والسنّة. ومع ذلك فقد كانت لِكثير منهم همم عالية في التحصيل والتأليف، وبرز في التاريخ الإسلامي عدد كبير منهم تميزوا بالتأليف الموسوعي، الدال على تكامل المعارف وتداخلها، داخل اختصاص واحد، وعدة اختصاصات؛ منها على سبيل المثال:

(13) الغزالي، أبو حامد. **ميزان العمل**، تحقيق: أحمد شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م، ص209.

(14) السيوطي، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م، ص180–181.

أ – التكامل المعرفي داخل التخصص

علوم الشريعة كثيرة ومتشعبة، وقد حقق كثير من العلماء تكاملاً معرفياً، تمثل في الإلمام بعلوم التفسير والحديث، والأصول، والفقه، والمقاصد، واللغة، وعلم الكلام، والمنطق، والتاريخ، والأنساب، وظهر ذلك جلياً في مصنفاتهم، ومنهم: الإمام ابن حزم، وابن تيمية، وابن حجر، والسُّبكي، والذهبي، وابن العربي المالكي، وأبو حيان التوحيدي، والغزالي، وابن القيم، والسيوطي، والنووي، والشاطبي، وابن خلدون...

ب – التكامل المعرفي في تخصصات كثيرة

وهو الجمع بين علوم في تخصصات مختلفة، فمنهم من جمع بين علوم الشريعة والطب، والهندسة والفلك، وغيرها، ومن أبرز العلماء في هذا المجال: ابن رشد الحفيد الذي جمع بين علوم ثلاثة: الطب، والفقه، والفلسفة. والكندي أحد المؤلفين الموسوعيين الذي أنتج إنتاجاً متنوعاً في المنطق، والحساب، والطب، والهندسة، والنجوم، والموسيقى، والجغرافيا، والجدل، وعلم النفس، والسياسة، والأخلاق. وأبو بكر الرازي الذي جمع بين الشريعة والطب، وغيرهم. وقد برز التأليف الموسوعي بعد حملة التتار والحروب الصليبية بشكل لافت للانتباه، وهذا يدل على وعي العلماء آنذاك بمشروعهم الحضاري، وهو العودة إلى الريادة والسيادة بوساطة الدين والعلم والأخلاق.

وفي ضوء كلّ هذا برز من علماء الإسلام من يتبنى قضايا التخصص والفصل بين العلوم؛ ليس تحصيلاً، بل منهجاً وتأليفاً وتدرجاً في تلقين العلوم، ومنهم على سبيل المثال ابن رشد الذي قال عنه طه عبد الرحمن: "لقد أظهر ابن رشد منذ باكورة إنتاجه، وهي المختصرات، نزعة تخليص تصانيف العلوم مما يظن أنه لا يدخل فيها من أبواب أو لا يرقى إلى مرتبة أقوال أصحابها من الراسخين في العلم، فقام باختصار كتاب المستصفى للغزالي... الذي اشتهر بحسن التبويب وإحكام الترتيب، وبمقدمة جامعة في المنطق تعد في نظرنا حدثاً

حاسماً في تاريخ الممارسة التكاملية للتراث، لكن ابن رشد حذفها، كما لو كانت زيادة في غير محلها أو إقحاماً مفسداً للبناء العلمي..."[15]

وقد فرّق علماء الإسلام -في رأيي- بين التكامل المعرفي في مرحلة التحصيل والتلقي، والتفرغ لعلم واحد يبذل فيه الوسع والجهد، ويتقن استيعاباً وتعليماً وتصنيفاً. قال ابن قتيبة: "من أراد أن يكون عالماً فليطلب علماً واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم..."[16] وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: "ما ناظرني رجل قط وكان مفنناً في العلوم إلا غلبته، ولا ناظرني رجل ذو فن واحد إلا غلبني في علمه ذلك."[17] وقال خالد بن يحيى بن برمك لابنه: "يا بني، خذ من كل علم بحظ؛ فإنك إن لم تفعل جهلت، وإن جهلت شيئاً من العلم عاديته لما جهلت، وعزيز عليّ أن تعادي شيئاً من العلم. وأنشدني عبد الله بن محمد بن يوسف:

فلا تلمهم على إنكار ما نكروا فإنما خلقوا أعداء ما جهلوا."[18]

ويرى ابن خلدون أن التكامل المعرفي في التخصصات الكثيرة في متناول الجميع، وطرائق التعليم ومناهجه تسهل هذا، وليس شرطاً أن يتقن كل طالب علم علوماً كثيرة فهو يقول: "اعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك. وحينئذ يسلم له منصب التحصيل، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها، فيقع القصور -ولا بد- دون رتبة التحصيل."[19]

---

(15) عبد الرحمن. **تجديد المنهج في تقويم التراث**، مرجع سابق، ص127.

(16) التوحيدي، أبو حيان. **البصائر والذخائر**، دمشق: أطلس للنشر والتوزيع، 1964م، ص55.

(17) ابن عبد البر. **جامع بيان العلم وفضله**، مرجع سابق، ج2، ص150.

(18) المرجع السابق.

(19) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. **المقدمة**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: نهضة مصر للطباعة، ط3، ج1، ص339.

ثانياً: التكوين الجامعي المعاصر ودلالات التكامل المعرفي

يتناول الشق الثاني من هذا البحث، التكوين الجامعي المعاصر عموماً، والتكوين الجامعي في الدراسات الشرعية خاصة، ودور الجامعة في الحضارة والتقدم، ودور الطالب الجامعي في الإسهام في المعرفة، وأهمية المناهج في التحصين العلمي والحضاري للشباب.

1 – الجامعة الحديثة وغياب المدلول الحضاري

تعيش الجامعة العربية أزمة وشرخاً كبيراً بين الهوية الحضارية والانتماء، مسايرة الركب العلمي والتقدمي الذي عليه الجامعات في الغرب، وكذلك في دول آسيا. والطالب الجامعي حاله من حال جامعته، فهو يواجه في جميع تخصصاته الجامعية نظريات مستوردة، وأفكاراً تهدد هويته الحضارية، وشخصيته القاعدية الفطرية.[20]

وفصّل الفاروقي في كتابه: "أسلمة المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل" تشخيص الداء الذي أصاب الأمة الإسلامية، وهو الخلل في منظومة التعليم عموماً والجامعة خصوصاً، فهو يقول: "...التعليم في العالم الإسلامي في أسوأ حالاته على الرغم من التوسع الهائل الذي تم حتى الآن، أما فيما يتعلق "بأسلمة التعليم" فلم تكن المدارس والكليات والجامعات –التقليدية منها والعلمانية– بأشد جرأة مما هي عليه اليوم في الدعوة إلى مبادئها اللاإسلامية، كما أن الأغلبية الساحقة من الشباب المسلم لم تكن في يوم من الأيام أكثر افتناناً بهذه المبادئ منها اليوم... ولما كان النظام التعليمي العَلماني قد نشأ في ظل الإدارات الاستعمارية، فقد احتل مساحة هائلة من المساحة، وأُبعد عنها النظام الإسلامي...[و]ظل التعليم الإسلامي

(20) ليس المقصود هنا إلغاء المعرفة الإنسانية، وتدريس النظريات المختلفة من الشرق والغرب ومن حضارات أخرى، وإنما أقصد تغييب النظريات الإسلامية والعربية والمنتوج الفكري لعلماء الإسلام عبر التاريخ الطويل، والاقتصار على المستورد فقط. في حين استفاد الغرب كثيراً من نظريات المسلمين وعلومهم، وبنى عليها نهضته الحديثة، ثم أعاد تصديرها إلينا على أساس أنها خاصة به، والأمثلة كثيرة ليس هنا مجالها.

في جملته قائماً على الجهد الذاتي الفردي محروماً من الاستفادة من الاعتمادات المالية الحكومية... وحيثما توفرت تلك الاعتمادات فإن متطلبات "العلمنة" كانت تفرض نفسها باسم الحداثة والتقدم...كان هذا يؤدى إلى تقسيم المنهج الدراسي إلى شعبتين متقابلتين بل متعارضتين، تدعى إحداهما "إسلامية" والأخرى"حديثة" (كذا!)، معتبرين الأزهر هو النموذج التقليدي...فأما الشعبة الإسلامية فتبقى على حالها دون تغيير بدعوى المحافظة ومن أجل مصالح مكتسبة، من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن العلمانية تخطط لإبعاد التعليم الإسلامي عن الاحتكاك بالواقع وبالتطورات الحديثة، وذلك حتى لا يشكل خريجوه عناصر منافسة لخريجي المعاهد العلمانية... كلّ هذا خطط له دهاقنة الاستعمار بعد درس وتمحيص...

أما الدَّفعة الكبرى للنظام العَلماني فقد جاءت بعد الاستقلال؛ إذ تبنته الدولة طريقاً لها ومنهجاً، وصبّت فيه الاعتمادات المالية الحكومية، بل وأغرقت من هذا المنهج العَلماني بدعوى القومية والوطنية...إن سيادة قوى "التغريب"و "العلمانية" وما ينتج عن ذلك من إبعاد المدرسين والطلاب عن الإسلام، كل ذلك لا يزال يعمل عمله في الكليات والجامعات بكل قوة، ولم يقم أحد بأي عمل يكبح جماح هذا الانحراف، والحق أن الوضع الآن أسوأ مما كان عليه أيام الاستعمار." ويقول الباحث المغربي عز الدين العزماني: "تعيش الجامعة المغربية أزمات مركبة، لعل أبرزها ينجلي في بعدين أساسيين، بعد أول يتعلق ببنية التكوين، ثم بعد ثانٍ يتعلق بتكوين البنية، وأقصد بتكوين البنية، النسق الهيكلي والمؤسساتي للجامعة الذي لا يعكس في العمق التركيبة المجتمعية، كما أقصد ببنية التكوين، النموذج المعرفي والعلمي الذي يكمن في المحتوى التعليمي الذي يعبّر عن الأيديولوجيا السلطوية، ولا يعبّر بشكل جوهري عن مخاضات التحول الثقافي الذي يعرفه مجتمعنا."[21]

(21) العزماني، عز الدين. "الجامعة المغربية ورهان التكاملية المعرفية"، أشغال الملتقى العلمي الوطني لمنظمة التجديد الطلابي، حول موضوع "إصلاح التعليم بالمغرب: الجامعة أول"، المغرب: جامعة الراشيدية، 28، 29 أبريل 2008م.

2 – الجامعة الحديثة وتأصيل العلوم الإنسانية والتجريبية

شكل مصطلح"جامعة"عند المسلمين ذلك المفهوم الجامع لعدة علوم ومعارف، وذلك التكوين الشمولي في مجالات معرفية كثيرة، على مستوى الأفراد والجماعات، فقد يتحقق النبوغ الفكري في واحد يجمع بين علوم شتى، وقد تخرج الجامعة وفق خططها عدة طلاب في كلّ التخصصات التي خططت لها. والجامعة (université) من حيث تعريفها في القاموس الأوروبي، نجد أنها تحيل على "نظام مؤسسي ينظم النسق المعرفي المجتمعي،"[22] ومن ثم تتحدد وظيفتها في إنتاج المعرفة بشكل نسقي وهو ما تحيل عليه أيضاً لفظة الجامعة. والجامع في اللغة العربية، من "جمع الشيء؛ أي نظمه ونسقه"، مما يدل على أن الدلالة اللغوية للجامعة في المجال التداولي العربي الإسلامي، تحيل على معاني النسقية والتكاملية والاستقرار، وهو ما نجد دلالته التاريخية ضمن المضمون العلمي للجامعة الإسلامية (القرويين، الأزهر، الزيتونة...) التي كانت تعبر بشكل نسقي، عن النماذج المعرفية للعلوم الإسلامية؛ كما تتجلى في تفاعلات النظام المجتمعي: (أصول الفقه، أصول الحديث، المنطق، علوم اللغة...) مما جعل تلك المؤسسات التعليمية حاضنة لكيان المجتمع وهويته ووجوده.[23]

---

(22) انظر التفصيل في:

- كورفيتش، جورج. **الأطر الاجتماعية للمعرفة**، ترجمة: خليل أحمد خليل، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1981م.

(23) نرى تفصيلاً كبيراً لهذا الأمر في:

- حاج حمد، محمد أبو القاسم. **العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة**، بيروت– بغداد: دار الهادي، مركز دراسات فلسفة الدين، ط1، 2004م.
- حاج حمد، محمد أبو القاسم. **منهجية القرآن المعرفية.. أسلمة العلوم الطبيعية والإنسانية**، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1424هـ/2003م.
- الفاروقي، إسماعيل راجي. **أسلمة المعرفة.. المبادئ العامة وخطة العمل**، ترجمة: عبد الوارث سعيد، الكويت: دار البحوث العلمية بالكويت، 1983م.
- العلواني، طه جابر. **إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم**، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1996م. =

ولا يمكن أن يحدث هذا في عصرنا إلا إذا تأصلت العلوم، وأعيدت إلى مظانها ومصادرها الحقيقية التي غيبها الاستعمار، والجهل والتقليد للغرب الذي فصل العلوم عن الدين، فإذا كان الغرب محقاً في طرحه هذا بسبب تضييق الكنيسة على العلماء، فليس الشأن كذلك في الإسلام، فلا منافاة في الإسلام بين العلم والدين -كما سبقت الإشارة في مباحث سابقة- وفي هذا الصدد قال الشيخ ابن تيمية:"الأدلة العقلية والسمعية متلازمة كل منهما مستلزم صحة الآخر، فالأدلة العقلية تستلزم صدق الرُّسل -عليهم السلام- فيما أخبروا به، والأدلة السمعية فيها بيان الأداة العقلية التي بها يعرف الله وتوحيده وصفاته وصدق أنبيائه... والعقل الصريح مطابق للسمع الصحيح."[24] ويقول الغزالي: "يعتبر العقل: القاضي الذي لا يُعزل ولا يبدَّل، والشرع: الشاهد المُزكَّى المُعدَّل، ويجعل العقل مركب الديانة، وحامل الأمانة."[25]

لقد انتقد الفاروقي رواد النهضة الحديثة والحكام العرب الذين رأوا أن إصلاح نظام التعليم الجامعي الأزهري، هو إدخال المناهج والبرامج الغربية، بحجة تطوير التعليم، والسير في ركب الحضارة، فوقع التخلي عن القيم، والتأخر عن ركب الحضارة. فهو يقول: "...لقد حاول كثيرون من كبار الشخصيات الإسلامية في الماضي أن يصلحوا نظام التعليم الإسلامي، وذلك بأن يضيفوا إلى مناهجه الدراسية الموضوعات الأساسية في النظام الأجنبي. ويعدّ السيد أحمد خان والشيخ محمد عبده روّاد هذه المحاولة، أما جمال عبد الناصر فقد وصل

= - العلواني، طه جابر. **إسلامية المعرفة**، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1401هـ.

- غلاب، محمد. **المعرفة عند مفكري المسلمين**، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1996م.

(24) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. **درء تعارض العقل مع النقل**، تحقيق: محمد رشاد سالم، السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود، 1997م، ص56.

(25) الغزالي، أبو حامد. **إحياء علوم الدين**، القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، 1358هـ، ج1، ص213.

إلى ذروة هذه الاستراتيجية عام 1961م حين حول الأزهر -أعظم حصن للتعليم الإسلامي- إلى جامعة "حديثة". لقد استقرت جهود هؤلاء، وجهود الملايين من أمثالهم، على فرضية أن تلك الموضوعات التي تدعى "بالحديثة" لا ضرر فيها، وأنها يمكن أن تمد المسلمين بالقوة، وقليلاً ما أدركوا أن هذه الدراسات الأجنبية من "إنسانيات" و"علوم اجتماعية"، وحتى "العلوم الطبيعية"، ما هي إلا واجهات لنظرة متكاملة للحقيقة وللحياة وللعالم وللتاريخ؛ نظرة غريبة بالدرجة نفسها عن نظرة الإسلام.

وقليلاً ما عرفوا عن العلاقة الدقيقة والضرورية التي تربط مناهج البحث في تلك الدراسات، كما تربط نظرياتها في الحقيقة والمعرفة بنظام القيم لهذا العالم الأجنبي، ومن هنا كان عقم إصلاحاتهم. فمن ناحية ظلت الدراسات الإسلامية الآسنة على حالها لم تمس؛ ومن ناحية أخرى لم يؤد العلم الجديد الذي أضيف إلى إنتاج أي مهارة متميزة، كتلك التي ينتجها في موطنه الأصلي... فالذي حدث هو العكس؛ إذ جعل المسلمين عالة تتبع البحث الأجنبي والقيادة الأجنبية، لقد نجح -تحت تأثير مزاعمه الطنانة بالموضوعية العلمية- أن يقنعهم بأن فيه الحق الذي يعلو-بل يناهض- مقررات الإسلام التي وسمها أنصار التقدم المتحمسون بالمحافظة والتأخر..."[26]

3 - تأصيل العلوم بين الأسلمة والتقريب

ناقش كثير من المفكرين والعلماء أوضاع الأمة الإسلامية، وإشكاليات النهوض، ودور العلم في ذلك، وشخصوا أسباب التدهور، ومنها الفصل بين الدين والعلم، والوقوع في التقليد الذي عُدّ التخلي عن الدين سبب تقدمه، ورأى عدد من المفكرين والعلماء أن العودة إلى ركب الحضارة إنما هو عن طريق أسلمة العلوم، وتأصيل العلوم الإنسانية والتجريبية، وردّها إلى المصادر الأساسية للمعرفة عند المسلمين: القرآن والسنة.

---

(26) الفاروقي. **أسلمة المعرفة**، مرجع سابق، ص3.

والحقيقة أن التكامل المعرفي يدور بين هذين الشقين: الأسلمة والتقريب، تكاملاً بين هذه المقترحات؛ فالفاروقي وحاج حمد ومن وافقهم يتحدثون عن أسلمة المعرفة في مشروعهم، وطه عبد الرحمن وطلابه ومن وافقهم يتحدثون عن التقريب بين العلوم، وكلّها تصب في الجمع بين الأصالة والمعاصرة. يقول الفاروقي في كتابه:" أسلمة المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل" في موضوع أسلمة المعارف الحديثة: "إنها لخطوة عظيمة إلى الأمام إذا ما فرضت الجامعات والكليات في العالم الإسلامي مقررات دراسية إجبارية في الحضارة الإسلامية بوصفها جزءاً من برنامج الدراسات الأساسية لجميع الطلاب. إن ذلك سيمد الطلاب بالإيمان بدينهم وتراثهم، وسيزرع في نفوسهم الثقة بأنفسهم لينهضوا ويواجهوا مشكلاتهم الحالية، ويتغلبوا عليها ثم ينطلقوا نحو الغاية التي كلفهم بها الله تعالى، لكن هذا لا يكفي. إن الانطلاق نحو الغاية الإسلامية والعمل على جعل كلمة الله هي العليا في الزمان والمكان، لا غنى لهما عن معرفة العالم المحيط بنا، هذه المعرفة هي هدف العلوم المختلفة، وقد وجدنا المسلمين قبل أن يسقطوا في الضعف والنوم يطورون العلوم ويحددون بوضوح علاقة الإسلام بكل واحد منها من حيث القيم والأنظار المتعلقة بالحياة، وقد نجحوا كذلك في جعلها جزءاً لا يتجزأ من بناء المعرفة الإسلامية. لهذا حققوا إنجازات رائعة في كل الميادين، كما استخدموا هذه المعرفة بكفاءة ليرتفعوا بمثلهم الإسلامية، وحين ركدت ريح المسلمين قام غير المسلمين فأخذوا تراث العلماء والمثقفين المسلمين وكيَّفوه مع نظرتهم للحياة، وأقاموا على ذلك مختلف العلوم، وأضافوا إليه مساهمات ذات قيمة، ثم استغلوا كل تلك المعارف الجديدة فيما يحقق مصالحهم. واليوم، ها نحن نجد أن غير المسلمين أساتذة لكل العلوم بلا منازع، واليوم نجد مؤلفات غير المسلمين وإنجازاتهم ونظرتهم للعالم ومشاكلهم ومثلهم العليا هي التي تدرس للشباب المسلم في جامعات العالم الإسلامي، إن شباب المسلمين اليوم وفي جامعات المسلمين يتم صبغهم بالصبغة الغربية وعلى أيدي الأساتذة المسلمين...."[27]

(27) المرجع السابق، ص3.

وقد اقترح الفيلسوف طه عبد الرحمن وضع أو اقتراح التقريب بدلاً من أسلمه المعرفة، اقتداء بالإمام ابن حزم الظاهري في كتابه: "التقريب لعلوم المنطق". وقد وضع آخرون مصطلح "تكامل المعرفة" لتدارك التحيز الذي يوحي به مصطلح "أسلمة"، لكن، ينبغي طرح مصطلح يجمعها كلها في غاياتها ويتفادى سلبياتها، وهو "وحدة المعرفة "، فغاية الرسالة السماوية التوحيد، والحقيقة واحدة، والطريق واحد، والقول بالتكامل لا يكون إلا عن خلاف واقع لا اختلاف؛ لأن الخلاف يحصل عن تنوع، والاختلاف عن تضاد، فينتج عن الخلاف حال الحوار تكامل، والتكامل يرام منه التوحيد في الكلمة والتعاون في العمل، والتنوع في الأفكار، فلا يقع الصدام، فبعضهم يكمل الآخر. ومصطلح" أسلمة المعرفة" كان المراد منه جعل العلوم في خدمة التوحيد والإيمان، وجعل العلوم كلها لنصرة حقائق الإسلام الكامن في الكتاب والسنة، وتجلية الإعجاز العلمي، وتقعيد العلوم الإنسانية على ضوابط العقيدة الإسلامية، والتحاكم لأولي العلم من المسلمين فيما اختلفوا فيه، بعد أن صارت العلوم توجه للطعن في الإسلام والعقائد الموحدة، بل صارت في خدمة الإلحاد ومركزية الإنسان.[28]

4 – الدراسات الشرعية بين التخصص والتكامل المعرفي الجماعي

الدراسات الشرعية الجامعية، سواء في مراحل التدرج، أو ما بعد التدرج وقعت في أسر المناهج الجامعية الحديثة في التخصصات التي تخل بالتحصيل التكاملي. فقسم الشريعة قصّر في التكوين العقدي والفكري للطلاب، وقصّر كذلك قسم العقائد والأديان في التكوين الفقهي والأصولي، وقسم الحضارة ينقصه كثير من المواد العقدية الفقهية. والعلم واسع وإدراكه كله مستحيل، ولكن الإشكال ليس في سعة العلوم وكثرتها، وإنما في المناهج والمقاربات التي تعتمد لتدريس هذه العلوم، والأهداف المحددة لهذا التكوين، فهل الطالب

(28) انظر: عبد الكريم، بليل. "أسلمة المعرفة: إعادة صياغة المصطلح"، 2009/9/12م، 1430/9/22هـ. موقع الألوكة: www.alukah.net

في الدراسات الشرعية يعد ليكون إماماً وخطيباً، أم أستاذاً ومعلماً، أم عالماً وداعية، أم صحفياً وكاتباً، أم ليكون كل هؤلاء، أو لا واحد من هؤلاء؟ لقد حل علماء الشريعة هذه القضايا قديماً حينما قرروا مبدأ التحصيل التكاملي، ثم مبدأ التخصص المبني على النهل من العلوم جميعها من غير تبحر ولا تعمق؛ لأن التخصص لا يمكنه أن يتقن من غير العلوم المرافقة له، فلا يمكن لمن يدعي أنه تخصص في أصول الفقه أن لا تكون له معرفة بالكتاب والسنة، والفقه والمقاصد والقواعد والنظريات الفقهية.

ولا يمكن لمن ادعى التخصص في العقائد والأديان ألا تكون له معرفة بالفكر والأديان والنظريات الفكرية والفلسفية والتصوف والأخلاق وغيرها، والجمع بين الشرائع والعقائد أولى. قال الإمام مالك: "مَنْ تفقَّهَ ولم يتصوف فقد تفسق، ومَنْ تصوَّف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمعَ بينهما فقد تحقَّق."[29] وإذا كان لهذا التخصص حسناته المرتبطة أساساً بضبط الحدود الفاصلة بين مختلف المناهج المعرفية، لضمان الحفاظ على هويتها، ومنع تحولها إلى معرفة مائعة، فإن للتخصص المبالغ فيه سلبياته الكثيرة التي تتجسد في التشيؤ المبالغ فيه للموضوعات المدروسة، عبر اقتطاعها من سياقها العام، الأمر الذي يلغي كل أشكال العلاقات الممكنة بين التخصص المدروس والتخصصات الأخرى التي نسج بلغتها ومفاهيمها الخاصة. وإذا لم يتحقق التكامل المعرفي بالأخذ من كل علم بنصيب وفق منهج مدروس معلوم، أقله دراسة كتاب في كل فن كما درج عليه الأولون، فليكن تحقيق التكامل على المستوى الجماعي؛ بإيجاد استراتيجية محكمة تحقق تلبية حاجات الأمة في كل تخصص، من يتقنه تحصيلاً، ومنهجاً، وتبليغاً، ودراسة وبحثاً، يتحقق له التميز والنبوغ والنجاح.

---

(29) العدوي، علي. **حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي**، مصر: دار الطباعة العامرة،1281هـ ج3. ص195.

5 – الدراسات الشرعية والتكاملية المعرفية

عندما أفتى كثير من العلماء بغلق باب الاجتهاد علّلوا ذلك بعدم وجود العالم الكفء، الذي تجتمع فيه علوم كثيرة ومعرفة بالواقع، والسبب يعود إلى أن العلماء لما أخلدوا إلى التقليد، ومرت الحضارة بالجمود ذهبوا إلى الفصل بين العلوم، وأن التخصص والتعمق في علم واحد هو الأساس، فوقع ما وقع من تعصب وخلاف وخصومات، والبعد عن النصوص وتحكيم الأعراف، فأصبحت خصومات بين أهل الفقه وأهل الحديث، وأهل التصوف وأهل الحديث، وكلّ يردّ على صاحبه، وبين أهل الكلام وأهل الأثر. قال في هذا الصدد محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة: "لا يستقيم العلم بالحديث إلا بالرأي، ولا يستقيم العمل بالرأي إلا بالحديث."[30] وقال الإمام الخطابي في "معالم السنن": "رأيت أهل العلم في زماننا قد حصلوا حزبين، وانقسموا إلى فرقتين: أصحاب حديث وأثر، وأهل فقه ونظر؛ كلّ واحدة منهما لا تتميّز عن أختها في الحاجة، ولا تستغني عنها في درك ما تنحوه في البغية والإرادة؛ لأن الحديث بمنزلة الأساس الذي هو الأصل والفقه بمنزلة البناء الذي هو له كالفرع، وكلّ بناء لم يوضع على قاعدة وأساس فهو منهار، وكلّ أساس خلا عن بناء وعمارة فهو قفر وخراب."[31]

وقد كان لـ"ابن خلدون" و"الشاطبي" وغيرهما دور كبير في التفطن لهذه القضايا؛ إذ رأى "الشاطبي" أنّ العلوم متكاملة، والاجتهاد لا يصح من دونها، وجعل علم المقاصد هو الذي يجمع ولا يفرق. وهذا ما لاحظه طه عبد الرحمن؛ إذ "يستعمل فعل قصد ويفيد المضادة لفعل لغا من اللغو بمعنى الخلو من الفائدة...، وضد سها من السهو وهو التوجه والوقوع في النسيان والقصد هو حصول التوجه والخروج عن النسيان، وهو ضد لها من اللهو، وهو الخلو من الغرض الصحيح، والقصد هو حصول الغرض الصحيح وقيام الباعث المشروع... وللمقصد بهذه

(30) السرخسي، أحمد بن أبي السهل. **أصول السرخسي**، تحقيق: أبي الوفاء الأفغاني، حيدر آباد– بيروت: لجنة إحياء المعارف النعمانية، دار المعرفة، د.ت، ج2، ص.113.

(31) الخطابي، أبو سليمان. **معالم السنن**، بيروت: المكتبة العلمية، ط1، 1401هـ/1981م، ج3، ص1.

المعنى مضمون قيمي، فيكون القصد بمعنى حصّل فائدة أو حصّل نية أو حصّل غرضاً، فيشمل علم المقاصد إذ ذاك على ثلاث نظريات أصولية متمايزة فيما بينها: نظريات المقصودات، وهي تبحث في المضامين الدلالية للخطاب الشرعي، ونظرية القصود وتبحث في المضامين الشعورية أو الإرادية، ونظرية المقاصد، وتبحث في الخطاب القيمي للخطاب الشرعي."[32]

أمّا على مستوى الدراسات العليا فيمكن أن تحقق التكاملية المعرفية في دراسات معمقة متخصصة تتناول ما يأتي:

الفرع الأول: الدراسات المقارنة والتكاملية المعرفية: ويمكن أن تؤدي إلى التقارب والتكامل على مستوى البحوث، وصورها، من نحو: مقارنة مسائل الشريعة بالقانون، ومقارنة مسائل الشريعة بالفلسفة، ومقارنة مسائل الشريعة بالإعجاز العلمي والاكتشافات الحديثة، ومقارنة مسائل الشريعة بالعلوم الاجتماعية وعلم النفس.

الفرع الثاني: فهو ضرورة الدراسات التأصيلية والتكاملية المعرفية، وهي دراسات مهمة في قضايا أسلمة المعرفة والعلوم، والتقريب بين العلوم العصرية والتجريبية والفلكية والطبية والعلوم الشرعية، وتأصيل هذه الظواهر من الكتاب والسنة، واعتماد الوحيين مصدراً للمعرفة الطبية والعلمية والفلكية وغيرها، لا مصدراً للمعرفة الشرعية فقط.

الفرع الثالث: ضرورة الدراسات المصطلحية والتكاملية المعرفية. فالدراسات المصطلحية مهمة في تحديد الأنساق المعرفية الإسلامية، والمصطلح في العلوم الشرعية من أساسيات العلم، فلا نجد مصنفاً لا يبدأ بتعريف العلم أو أجزائه المعرفية؛ لأن من خلاله تبين المقاصد الحضارية والفكرية وتضبط المفاهيم والحقائق، وتنحصر التأويلات الخاطئة وتقل مساحة الخلاف، وهذا يؤدي إلى بناء علمي متين في الفكر والمنهج والتحصيل.

---

(32) عبد الرحمن. **تجديد المنهج في تقويم التراث**، مرجع سابق، ص95-96.

خاتمة

إن إشكالية التكامل المعرفي إشكالية علمية تحتاج إلى جهود وإغناء. وقد اتضح من هذا البحث أنّ علماء الإسلام ناقشوا هذه القضايا المعرفية، انطلاقاً من ضرورة العلم، وضرورة طلبه وتحصيله، ثم نشره والعمل به لتحقيق حضارة تقوم على الإنسان صاحب الرسالة والأخلاق. وما دام البحث يناقش قضية التكوين لدي الطالب الجامعي الذي يعيش تمزقاً بين تحصيله العلمي وهويته، فإن الضوابط واضحة في تحقيق مبدأ التكامل في التحصيل قدر المستطاع، من غير إخلال بالتخصص، ومن غير عداوة لما يجهل من العلوم وحملتها. ويمكن تحقيق التكامل المعرفي في مجال العلم والدين والأخلاق أولاً، ثم التكامل في التحصيل، والمنهج، والتكوين، والتصنيف.

كما لا بدّ من إحداث مقياس علمي في كل التخصصات يتعلق بتاريخ العلوم عند المسلمين، والتركيز على المناهج والأنساق والتدرب على التفكير والاستنتاج أكثر من القناعات، والدعوة إلى نشر أفكار المعلم وليس نشر أفكار العلم. وإعادة النظر في كثير من المسلمات التعليمية والتعلمية على مستوى الإفراد والمؤسسات، والأسرة، والمدرسة، والجامعة، والجامع. وممارسة ما يسمى بالفرنسية قاعدة الميمات الثلاث: (La règle des 3 M) ممارسة التهجين المنهجي المافوق مناهجي. وإعادة النظر في مناهجنا الدراسية تأصيلاً وعصرنة. وحصر أهم مشكلات الشباب الفكرية ودراستها ومعالجتها.